بين الأسطورة والإيمان

ممّن تتحدّد البشرية؟..

هذا التساؤل قديم قدمَ الإنسان، وهو مما يُميّز الإنسان في إعمال فكره وهو سبب شقاق بين البشر.

للإجابة عن هذه الإشكالية، يتوسّلون عموما كلا من التاريخ والديمغرافيا وعلم الوراثة.

ثمة أمر ثابت مفاده ان كل بحث عن أصول ما، يقود إلى واقع الاختلاط بين البشر، ويُبعدنا عن استيهام نقاء بدائي. الاستيهامات الجماعية جزء لا يتجزّأ من التاريخ.

ان حقول المعرفة المذكورة قد حققت، بلا شك، تقدّما كبيرا شطرَ الموضوعية والدقة في البحث، ولكنها لن تستطيع ابدا ان تفلت من ذاتية المؤرخين والروح النسقية المنهجية في الايديولوجيات الحاكمة او المحتلة. لذا، ليس من السهل إفقاد الأساطير والخرافات مصداقيتها، خصوصا عندما نتناول أشخاصا يخلبون الألباب أو احداثا تكتنفها الغاز تحرّك مخيلة الرعاية الخصبة، احيانا، يبتدعون حقائق رسمية ليستروا حقائق أخرى مزعجة وغير مشرّفة وتجنّب إثارة خلافات عقيمة. الأسطورة أداة فعّالة. فحيث يتطلب العقل وقتا وانتباها ومنهجية وبحثا متأنيا، لا تكاد الاسطورة تحتاج إلى شيء. فهي ترتبط بالمخيلة وتؤثر في الحساسية، تجعل أكاذيب متنقلة ببساطة وفاعلية. انها الوسيط المثالي لإشاعة الايديولوجيات التي يسعون لإنشائها، والسلاح المخيف في أيدي الغوغائيين أو الانعزاليين المتقوقعين.

ثمة عيوب قومية، جماعية وخصال حميدة في كل أمة وكل مجتمع. الله عندنا مثلا من باب تحصيل الحاصل حتى في تعابير الملحدين. ولناس كثر «مونة» على الله ويعتبرون ان كل شيء يذوب في رحمته، وان لا اعتبار لديه تعالى لما نقترفه من خطايا «ضرورية» لتسيير حياتنا اليومية لاحتسابنا ان الحياة - وحتى الموت! - لا يُمكن تدبيرها بتقوى حادة. وثمة مَن ذهب، عكس ذلك ربما - إلى الاستغناء عم إعمال العقل والروية وحتى عن اللجوء إلى شاهقات الروح وعوالم التسامح والمحبة لتبرير عداء ما هنا وهناك وهنالك. الكذب (وما إليه) الذي هو أساس الموبقات في نظري، لا يبدو مزعجا لأصحابه. يقولون: أليس الله يريد هنا ضا؟

شأن بعض الأساطير ان تلائم شمل أمة ما أو مجتمع ما، من الوجهة الاجتماعية ومن باب التعميم أو الترجيح، كأن نقول ان الانكليز عموما هادئون بسبب من تقليد أو تربية، او ان نقول ان شعبا افريقيا ما كسول او انفعالي بسبب من مناخ أو ضعف في صقله التاريخي. قال شاعر يوناني قديم: «كل كريتي كذّاب» ليس لأن الجزيرة خلت من الصادقين ولكن، لأن تصرف الأكثرين في هذا المنحى... ولكن الإيمان والمعتقدات شيء، والأساطير، في ذاتها، شيء آخر. للانبساط، في العربية مدلولان: السرور والامتداد. في الحالة الأولى نفرح ونسعد فهنا، ولكن الإنبساط أو الانشراح هو أيضا وعلى الخصوص انشراح الذات والآخر واتساع حريتهما معا ليكونا معا أمام آفاق اللامتناهي التي لا تُحدّ.

د. جهاد نعمان
استاذ في المعهد العالي للدكتوراه